محنة العقل الحديث بين الشعر الجاهلي وإعجاز القرآن الكريم

د. بن نعمية عبد الغفار/جامعة وهران1

***

المولج*:

كثيرة هي المحن التي طالت عقول المسلمين في العصر الحديث على مدار فترات التاريخ المختلفة، ومع كون بعضها كان أشد من بعض، إلا أنّ ما تركته في ذهنيات الناس لا يكاد يُنسى، خاصة وأنّ هذه المحن قد ارتبطت بمسائل وقضايا كان الناس فيها على محك بين الإيمان أو الكفر، بل خلفت ضررا واسعا لم يسلم منه إلا من اختُبر فأجاب، أو جُهل عليه فنجا، أو شُبّه له ودُلّس عليه فرأى بمنظار من البصيرة ألزمه الحجة بالبيان.

إنَّ من أجلِّ ما تمكّن من العقل العربي الحديث وأدخل أصحابه في غيبوبة من التفكير انتهت بين يقين وشك، هي مسألة الإعجاز القرآني التي عانى في إدراكها جيل واسع من المسلمين، وطالت مدة معاينتها حتى مكّنت غير المسلمين من وضع السم حيث ينفع عقيدتهم، تمثلت في كتابات المستشرقين، وأضعفت همة كثير من أبناء العرب حين أخذوا من ترياق هؤلاء فيما يضرُّ عقيدتهم.

* - Abstract: The issue of the Holy Quran's miracleis one of the most difficult issues of heritage and analysis, and its closest relation with the Koran has become dealing with a degree of reserve, which preserves the sanctity of the Koranic text Don't make it carries what it can not In many academic writings, the issue of Quranic miracles is a subject of disagreement between researchers. As far as there are many opinions, it was an appropriate issue to emphasize the specificity of the Quranic text and the richness of the Islamic heritage. In this article we will not deal with the determination of opinions however to talk about their impact in modern and contemporary thought, especially since the issue of miracles is a major issue in the original literature, rhetoric and literature According todifferent diversityabout the miracles'sissues, it was considered by many researchers as a real ordeal, which was challenged by the modern view. Different religious sects and different contractual views were determined accordingly, and through this article we strive to identify the various modern concepts in the study of the Quranic miracle and its impact. Modern thought.

كلمات مفتاحية: الإعجاز؛ القرآن؛ المناهج؛ العلوم؛ العقل؛ المعاصر؛ الشعر.

ليس الغرض من هذا المقال تحرير محل النزاع في مسألة الإعجاز فتلك قضية ولّت ودرج البيان فيها بنجاح، بقدر ماهي محاولة للربط بين جانبين مهمين اشترك العقل الحديث في مخاضهما، كانا بمثابة نفقينفي بدايات الجهل بهما، وهما مسألتي الشعر الجاهلي والإعجاز القرآني فبينهما حدود مشتركة، وفي ذات الوقت فواصل متباينة، كانت بمثابة المعركة بالنسبة للعقل الحديث وهو يحاول وضع حدٍ لمعاناته.

ليس يخفى على العاقل ما ألمَّ بعقول الناس في الجزيرة العربية إزاء سماع آيات الذكر الحكيم، كما لا يخفى ما عملته كلمات الشعر فيهم قبل ذلك، وهم أبناءه وآبائه وأجداده وقائلوه وناظموه، على خلاف القرآن الذي هم سامعوه فحسب، ثم المؤمنون به أو الكافرون، وهي مزية انتبه لها من انتبه منهم وغفل عنها الغافلون.

لو افترضنا أنَّ شعر العرب ونظمهم في الجاهلية وفد على قبائل أعجمية، ثم سمعوا منهم كلامهم الذي يعرفون من غير نظم ولا وزن، فسنكون أمام افتراضين اثنين، إما أن ينتبهوا إلىالفرقبين نمطي الكلام، أو أن لا ينتبهوا وليسوا بأهل لغة ولا بيان،وفي كلا الحالين يبقى شعرهم في مرتبة لا تُضاهى وليس بحاجة إلى تقييم، مع غياب شعر آخر قد يفرض على العرب تحديا يُذكر، وعلى فرض صدق هذا الافتراض فالعرب مطالبون آنذاك وقد أُنزل إليهم القرآن أن يُسمعوه إلى هذه القبائل الأعجمية كما أسمعوهم نظمهم وشعرهم، فسيجدون في أنفسهم بين شعر العرب ونثرهم، ثم بينهما وبين القرآن الكريم، ما وجده العرب في أنفسهم تجاهه، تماما كما انتبه من انتبه إلى الفرق بين التوراة والإنجيل الصحيح والمحرَّف، لا من جهة البيان بل من جهة قدسية الكلام وصبغته الإلهية.

من الضروري حتما وحال المقال بعيد عن تحرير محل النزاع، أن نعرّج على بعض التعاريف المهمة لاستكمال وحدات المقال، هي في الأصل أساسيات وقواعد تعينُ في خوض هذه المعركة الفكرية، وهي: الشعر الجاهلي، وإعجاز القرآن الكريم،

مفهوم الشعر الجاهلي:

الشعر في اللغة: اعتبر الراغب في مفرداتهأصل الكلمة"اسما للعلم الدّقيق في قولهم: ليت شعري، وصار في التّعارف اسما للموزون المقفّى من الكلام، والشَّاعِرُ للمختصّ بصناعته، وأن الشاعر سمي شاعرا لفطنته ودقة معرفته"[1]

[1] ـ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق، صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، 1412هـ، ص 456

الشعر في اصطلاح الأدباء:

لا تكاد عبارات المحققين من الأدباء تختلف في تعريف الشعر أنه" الكلام الفصيح الموزون المقفى المعبّر غالبا عن صور الخيال البديع"[1]

أما شعر الجاهلية فلولاه لما وقع لذا الأدباء تعريفا كهذا، بل قارب أن يكون علما على أدب رفيع في الجاهلية، هو في الذهنية الفكرية موضع احترام، ولأنه لن يقلَّ شأنا عند المنصفين من العرب، فقد كان كذلك عند المنصفين من غير العرب، يبدو ذلك جليا عند المستشرق ثوربيكه الذي يعرّف الشعر الجاهلي بأنه "وصف مزيَّن بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها، فقد صور العرب أنفسهم في الشعر صورة منطبقة على الحقيقة بدون تزويق ولا تشويه"[2]

بهذه الصورة إذا ظهر أهل الجاهلية رغم جاهليتهم، ألزم أدبهم اعترافا مرموقا، لا يزال إلى اليوم شاهدا على لسان منقطع النظير في شأن الشعر هذا.

مفهوم إعجاز القرآن الكريم:

دفع الذهول العربي بسبب بلاغة ودقة الخطاب القرآني ورفعة بيانه دفع . إلى اقتناع الفكر العربي الأول عند أهل الجاهلية أنَّ بين بيانهم وبلاغتهم وبين ما يسمعون حدا فاصلا وحاجزا، ولا أدلَّ على ذلك من شهادة فطاحلة العرب وساداتهم وشرفائهم حين يعبرون عن ذلك بأوصاف جمعه بين الحلاوة والطلاوة، وبين الغدق والإثمار، وأنه يعلو ولا يعلى عليه، وهو اعتراف جريء شجاع لا يبقي شكا في إسلام قائله[3]، إلا أنّ العناد العربي المألوف حال دون ذلك، وإن عميق النظر جعل الوليد بن المغيرة بين فكين أحدهما أشد مرارة، فكونه أحد أشراف قومه لم يمنعه من وضع القرآن الكريم في مرتبته التي هو عليها، قبل أن يصفه بالسحر، وأما عناده فلم يمنع القرآن الكريم من وضعه في مرتبته التي يستحق، فالوليد لم يبق بينه وبين الإسلام قدر أنملة، وكلماته ظلّت في خالدة في الفكر العربي، إلا أنَّ العناد أبعده عن الشرف العربي ويبقي الوصف القرآني خالدا كذلك في الفكر العربي حين قال تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ

---

[1] ـ الهاشمي أحمد بن إبراهيم، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف، بيروت، ج2، ص 23

[2] ـ الجندي علي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، ط1، 1412هـ، 1991م، ص 186

[3] - الوليد بن المغيرة بن عبد الله من قضاة العرب وزعماءها وزنادقتها. وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وضرب ابنهشاما على شربها. وأدرك الإسلام وهو شيخ هرم، فعاداه وقاوم دعوته، وهو والد خالد بن الوليد، مات في السنة الأولى للهجرة/ الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2000، ج8، ص 122

وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[1]

لقد ظلت العقلية العربية الأولى مسلِّمة للقرآن الكريم دون عناء البحث عن سر العجز العربي عن مجازاة القرآن، إلى غاية فترة الاختلاط بالثقافات الأخرى، يقول صاحب كتاب إعجاز القرآن الكريم:" في هذه البيئة المختلطة بالتيارات الثقافية المتباينة، برز الحديث عن وجه إعجاز القرآن، وعن سبب عجز العرب عن الإتيان بمثل سورة من القرآن. ولعل الفكرة أول ما نشأت في مجالس بعض القوم في البصرة في القرن الثاني الهجري، حيث كانت البصرة تموج بالتيارات الفكرية المختلفة من فقهاء ومحدثين ولغويين وأدباء وفلاسفة متكلمين، ودعاة إلى مذاهب خارجة عن الإسلام

كالثنوية[2]والمانوية[3] والسّمنية[4]والدهرية[5]وغيرها مما حملته التيارات الفكرية الوافدة من الشرق"[6] ثم إنَّ عميق البحث عن القضية الإعجازية بدا أكثر حظا بعد صنيع المعتزلة، وعلى رأسهم واصل بن عطاء[7]في القرن الثاني للهجرةمن شيوخ المعتزلة الذي فتح باب النظر والتنقيب، لكن الصواب جانبه إذ اعتبر الإعجاز

---

[1] ـ سورة المدثر الآيات 18 ـ 29

[2]ـ أصحاب الاثنين الأزليين. يزعمون أن النور والظلمة أزليان، بخلاف المجوس، فإنهم قالوا بحدوث الظلام، وهؤلاء قالوا بتساويهما في القدم، واختلافهما في الجوهر، والطبع، والفعل، والحيز، والمكان والأجناس، والأبدان والأرواح/ الشهرستاني، الملل والنحل، مؤسسة الحلبي، ج2، ص 49

[3] ـ أصحاب ماني بن فاتك الحكيم ظهر في زمان سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن هرمز، وذلك بعد عيسى عليه السلام. أحدث دينا بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح ولا يقول بنبوة موسى عليها السلام/ المصدر السابق، ج3، ص 5

[4] ـ وَمِنْهُم السمنية الْقَائِلُونَ بقدم الْعَالم مَعَ إِنْكَارهم للنَّظَر وَالِاسْتِدْلَال ودعواهم انه لَا يعلم شيء إِلا من طرق الْحَوَاس الْخمس/ الإسفراييني، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1977م، ص 346

[5] ـ وهم الذين يقولون بقدم العالم وإنكار الصانع، وعندهم كل من آمن بالصانع فإنه يقول بحدوث العالم/ ابن تيمية، بيان تلبيس الجهمية فيتأسيس بدعهم الكلامية، مجموعة من المحققين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط1، 1426هـ، ج1، 438

[6]مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن الكريم، دار القلم، دمشق، ط3، 1426هـ،2005م، ص 45

[7]ـ واصل بن عطاء الغزّال، أبو حذيفة، من موالي بني ضبة أو بني مخزوم: رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلمين. سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري. ومنهم طائفة تنسب إليه، تسمى " الواصلية " وهو الّذي نشر مذهب" الاعتزال في الآفاق: بعث من أصحابه عبد الله بن الحارث إلى المغرب، وحفص بن سالم إلى خراسان، والقاسم إلى اليمن، وأيوب إلى الجزيرة، والحسن بن ذكوان إلى الكوفة، وعثمان الطويل إلى أرمينية. ولد بالمدينة، ونشأ بالبصرة. وكان يلثغ بالراء فيجعلها غينا، فتجنب الراء في خطابه، وضرب به المثل في ذلك. وكانت تأتيه الرسائل وفيها الراءات، فإذا قرأها أبدل كلمات الراء منها بغيرها حتى في آيات من القرآن لم يكن غزّالا، وإنما لقب به لتزدّده على سوق الغزالين بالبصرة. له تصانيف، منها" أصناف المرجئة " و" المنزلة بين المنزلتين " و" معاني القرآن " و" طبقات أهل العلم والجهل " و" السبيل إلى معرفة الحق" و" التوبة " توفي سنة 131هـ/ الزركلي، المصدر السابق، ج8، ص 108

مسألة لا علاقة لها بذات القرآن، بل لأنّ الله تعالى صرف القدرة البشرية عن الإتيان بمثله، وظلت هذه الفكرة سائرة إلى القرن الثالث الهجريحين تبنّاها بعده ابراهيم ين سيَّار النظَّام[1]، وأقرّ بنظرية الصرفة كقاعدة أساسية في الإعجاز، مما جعل تلميذه الجاحظ يندفع إلى تأليف كتابه "نظم القرآن" لتبيين مسألة بيانية أكثر دقة وأبعد عمقا في قضية الإعجاز، كانت هي النظم القرآني، وفي خضمها ضعف القول بها باعتبار عقلاني واضح مفاده أنّ التحدي بمنطق القول بالصرفة لا يكون له معنى، فلا يستقيم أن يُجرّد العرب من سلاح البيان، ثم يطالبون بتحدي القرآن، ثم تتابعت بعدهما التواليف والمصنفات، ففي القرن الرابع للهجرة حيث ظهرت أبحاث أهل السنة والجماعة في مجال الإعجاز، كان من بينهم في القرن الرابع الإمام الخطابي[2]الذي ألّف كتابه "بيان إعجاز القرآن" إذ يقول في تثمين نظرية النظم :"وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاته"[3]

ثم جاء بعده القرن الخامس الهجري، مع ظهور الإمام عبد القاهر الجرجاني[4]الذي فجّر في كتابين اثنين نظرية عميقة هي ألصق بمفهوم الإعجاز وأنسب بخصائص

---

[1]- إبراهيم بن سيّار بن هانئ البصري، أبو إسحاق النظّام: من أئمّة المعتزلة، تبحر في علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين، وانفرد بآراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت (النظامية) وبين هذه الفرقة وغيرها مناقشات طويلة. وقد ألفت كتب خاصة للرد على النظام وفيها تكفير له وتضليل. أما شهرته بالنظام فأشياعه يقولون إنها من إجادته نظم الكلام، وخصومه يقولون انه كان ينظم الخرز في سوق البصرة. له كتب كثيرة في الفلسفة والاعتزال توفي سنة 231هـ/ الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002م، ج1، ص 43

[2]- حمد بن محمد بن إبراهيم ابن الخطاب البستيّ، أبو سليمان: فقيه محدّث، من أهل بست (من بلاد كابل) من نسل زيد بن الخطاب (أخي عمر بن الخطاب) له (معالم السنن) مجلدان، في شرح سنن أبي داود، و(بيان إعجاز القرآن) و(إصلاح غلط المحدثين) باسم (إصلاح خطأ المحدثين) و(غريب الحديث) قال المِيمي في مذكراته: منه مخطوطة كاملة كتبت سنة 488 في خزانة عاشر أفندي باستنبول، و(شرح البخاري) باسم (تفسير أحاديث الجامع الصحيح للبخاريّ) توفي سنة 388 هـ/ الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002، ج2، ص 273

[3] - الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق، السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط5، 1997م، ج1، ص 15

[4] - شَيْخُ العَرَبِيَّة، أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ القَاهِرِ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الجُرْجَانِيُّ.أَخَذَ النَّحْوَ بِجُرْجَان عَنْ أَبِي الحُسَيْنِ مُحَمَّدِ بن حَسَنِ ابْن أُخْت الأُسْتَاذ أَبِي عَلِيٍّ الفَارِسِيّ وَصَنَّفَ شرحاً حَافلاً لِلإِيضَاح فِي ثَلاَثِيْنَ مجلداً، وَلَهُ (إِعجَاز القُرْآن ضَخْم، و(مُخْتَصَر شرح الإِيضَاح)، ثَلاَثَة أَسفَار، وَكِتَاب (العوَامل المائَة)، وَكِتَاب (المِفْتَاح)، وَفسّر الفَاتِحَة فِي مُجَلَّد، وَلَهُ (الْعمد فِي التَّصرِيف)، و(الْجمل) وَغَيْر ذَلِكَ.وَكَانَ شَافعيّاً، عَالِماً،

العرب ومقوماتهم البيانية، بحث ركّز في كتاب دلائل الإعجاز على مسألة النظم، وبيّن في كتاب أسرار البلاغة مسألة البيان، لتكون النظرية الإعجازية في الأخير مبنية على نظرية النظم والبيان، وهو الوجه الذي به عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، وظلّت كتابات الجرجاني بعد ذلك إلى العصر الحديث ملاذا في مسائل الإعجاز والبلاغة والبيان والأدب والنحو.

ينبغي التنبيه أن الجرجاني على حسب ما يبدو قد عانى كثيرا في سبيل تأسيس هذه النظرية التي بدأت اعتزالية على يد النظام والجاحظ وانتهت أشعرية على يده، فكثيرا ما كان يغبر بقوله " لم أزل" مما يدلّل تلك المعاناة، كما نجده يستشكل عديد المسائل التي طرقها من كان قبله حول البالغة والفصاحة والبديع وغيرها. وعليه فما أقرّه الجرجاني بمنهجه الوصفي التحليلي كان نقلة نوعية لمسائل الإعجاز حيث انتقلت بها الفهم من حدود رعاية اللفظ وحده أو المعنى وحده، إلى رعاية الأمرين معا، وبهما استوى النظر، واستقرت النظرية.

نزاعاتالعقل العربي الحديث وثوابت الأصالة العربية والإسلامية:

لقد ارتبطت مسألة الإعجاز بقضية التدين البشري بصفة مباشرة، وتتبع مسارها يدفع إلى الغوص في طبائع النفوس البشرية، فقد فتح القبول والرفض العربي للقرآن الكريمبابا من التفكير، في إيمان البعض وجحود البعض بسبب خطاب موحد، وتراث بياني موحد، وربما كانت قصة الوليد نموذجا فريدا للاستدلال في مسالة بحدين مختلفين، حدُّ الاعتراف، وحدُّ الامتناع، لكن غياب أمور أساسية في إدراك القضية الإعجازية شكّلت وبحق حجر عثرة أمام علم إعجاز القرآن الكريم وتأخرّه عن المرتبة التي يجب أن يكون عليها، وأهم هذه الحقائق:

"أولا: أن (إعجاز القرآن) كما يدل عليه لفظه وتاريخه، وهو دليل النبي -صلى الله عليه وسلم -على صدق نبوته، وعلى أنه رسول الله يوحى إليه هذا القرآن، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم -كان يعرف (إعجاز القرآن) من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به. وأن التحدي المفروض على العرب هو تحد بالنظم والبيان لا بشيء آخر.

أَشعرِيّاً، ذَا نُسُكٍ وَدين وَكَانَ آيَة فِي النَّحْوِ.تُوُفِّيَ: سَنَةَ إِحْدَى وَسَبْعِيْنَ وَأَرْبَعِ مائَة وَقِيْلَ: سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسَبْعِيْنَ - رَحِمَهُ اللهُ/ الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تحقيق، شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ، 1985م،ج18، ص 433

ثانيا: أن إثبات دليل النبوة، وتصديق دليل الوحي، وأن القرآن تنزيل من عند الله، كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من كتب الله سبحانه، لا يكون منها شيء يدل على أن القرآن معجز." [1]فلا وجه للإعجاز فيها بمجرد كونها إلهية المصدر، كأن الإعجاز كان علما للقرآن الكريم دون سواه.

ثالثا: أن مطالبة العرب بالإيمان بنبوة محمد وصدق الوحي من جهة سماع القرآن ذاته، لا من جهة الجدال واللجاج، فالقرآن يحمل في ذاته أدلة ثبوته، ودوافع إيمانهم، قال تعالى﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، "وقد كان العربي يسمع القرآن، فيخر له ساجدا"[(3)]، والحق أنّ الآية قد ألهمت العقل العربي خطوة أخرى من التأمل، ذاك أن الطبيعة العربية لم تكن تتطلب أكثر من السماع المبني أساسا على فطرة التذوق، فكما امتاز العرب وتفاضلوا فيما بينهم في أشعارهم عن طريق تذوق المعاني، فإنه لا سبيل إلى إدراك حقيقة النبوة وصدق الوحي إلا بسماع القرآن، وهو دافع إدراك التفاوت بين كلام العرب وهو غاية في البيان، وبين كلام فاق جميع أنواع البيان، وعليه تكون الآية قد أسَّست لقاعدة جليلة مفادها كما يقول محمود شاكر في مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية: "أن القرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة، أما صحة النبوة فليست برهاناً على إعجاز القرآن"[4]

من هذا المنطلق فإن الحيرة التي دخلها العقل العربي، إزاء هذه الظاهرة القرآنية لم تنته إلا بقناعة البعض، وعداوة البعض الآخر، وربما حمل شعار العداوة طائفة واسعة من أبناء العرب ممن تمرَّنوا على أيادي المستشرقين الذين سخّروا جهودا لا يستهان بها في سبيل وضع مسألة الإعجاز في حيّز ضيق لا يتعدى عتبة العادية، وأقنعوا هذه الطائفة العربية التي تنكّرت لماضيها الأصيل وثوابتها وقيمها، حتى ذكر مالك بن نبي أن "الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين، قد بلغت درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها"[5]لقد عمل الفكر العربي من خلال تآليف كثيرة على

[1] - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية دار الفكر، دمشق، ط4، 1420هـ/ 200م، ص 24

[2] - سورة التوبة الآية 6

[3] ـ أبو شهبة محمد بن محمد، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، ص 317

[4] - الظاهرة القرآنية، المرجع السابق، ص 24

[5] - المرجع نفسه، ص 21

محاولة استجلاء أسباب واقعية لهذه المحنة الفكرية، التي عاشها جيل واسع من المسلمين، وإن فضّل بعضهم تسميتها بمحنة الشعر الجاهلي، فلارتباطها المباشر بقضية الإعجاز القرآني، وكلاهما أساس رصين في أصالة القرآن الكريم، أما الشعر فقد تعرَّض لطعنات طه حسين في كتابه الموسوم ب" في الشعر الجاهلي، محمد خلف الله بكتابه (الفن القصصي في القرآن الكريم)، ومحمد أركون في كتابه (الفكر العربي) وكذا بحثه المنشور عام 1977: المعنون ب:" (مسألة صحة نسبة القرآن إلى الله)، ونصر أبو زيد بكتابه (مفهوم النص)"[1]، وجميعها عملت على نسق واحد لا يقل جهدا عما قدّمه المستشرقون.

إن اجتماع ثلاثي الشر الذي مثّله المستشرقون والمنصِّرون والحداثيون في محاربة الأصالة القرآنية ترك أثرا غير محمود من خلال هذه الكتابات وأمثالها كثير، ومكّنت الغربيين من العودة بتاريخهم إلى هزائم كانوا قد تجرّعوها في الفتوحات الإسلامية التي لم تُدم جروهم منها بعد، وعملوا على وضع خِطط دسيسة من أجل الثأر لأجدادهم، وعليه فتحوا المجال واسعا في عدة جوانب منها:"حرب المعتقدات ومعركة الثقافة، التي تأتى في مقدمتها الغارة التنصيرية على القرآن الكريم. تلك الغارة الشرسة التي استهدفت أصالة القرآن الكريم بوصفه كلام الله المنزل على خاتم رسله محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم بفعل ماخلَّفته من افتراءات وشبهات ودعاوى روجتها الجدليات التنصيرية، وكانت هذه الافتراءات قوية الأثر إلى الحد الذي انخدع له بعض الدارسين"[2]على نسق من ذُكر آنفا.

لقد خلّف هذا الصنيع من الكتابات العربية فتنة غير مسبوقة، لامست جانبا كبيرا من عقائد الناس، وجعلت مسألة الإعجاز على محك صعب،لكن حنكة استشراقية سابقة أدركت جانب الارتباط الكبير بين مسألتي الشعر والإعجاز كانت عين البلاء في اعتماد أصحابها على فصل الشعر عن مرحلة الجاهلية وربطه بأقوال وبراعات صدر الإسلام، وهو ادعاء مثّله المستشرق مرجليوث[3]، في نزعة غريبة نسفها إنصاف

[1] - عبد الراضي محمد عبد المحسن، الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، مجمع الملك فهد، ص 27

[2] - عبد الراضي، المرجع السابق، ص 27

[3] ـ المستشرق الانجليزي أستاذ اللغة العربية في جامعة أكسفورد منذ سنة 1889 من مؤلفاته العربية: آثار عربية شعرية - لندن - ليبسيك 1887 موعنى بنشر معجم الأدباء لياقوت الحموي في 7 مجلدات وكتاب الأنساب للسمعاني ورسائل أبي العلاء المعري مع ترجمتها إلى اللغة الانكليزية ونشر أيضا رسالة في المناظرات التي جرت بين متى بن يونس القنائي الفيلسوف وبين أبي سعد السيرافي ومعها ترجمة انكليزية/ يوسف بن إليان بن موسى سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، مطبعة سركيس، مصر، 1346هـ،1928م، ج2، ص 1728

استشراقي على يد آربري[1]الذي يقول:"إن السفسطة- وأخشى أن أقول: الغش- في بعض الأدلة التي ساقها الأستاذ (مرجليوث)، أمر بيّن جداً، ولا تليق البتة برجل كان، ولا ريب من أعظم أئمة العلم في عصره[2]

وهذا يدفع إلى اعتبار الشعر الجاهليأساسا متينا في مشكلة الإعجاز على خلاف المصنفات التي ربطت الإعجاز بالتفسير، فالطعن في الشعر الجاهلي هو طعن في الإعجاز،مما يقتضي ريبا واسعا في عجز العرب عن التحدي المرفوع، ذلك أن القدرة البيانية التي عاينها شعر الجاهلية هذا مثّلت مدخلا مهما للحيرة العربية في بدايات النزول القرآني، ولم تحمل آياته شيئا من الكلمات لم يعهدها العرب من قبل، حتى إذ وصلنا إلى غريب القرآنكان "ابن عباس مصدرا مهما في شرحه وبيانه، بالرجوع إلى الشعر القديم، وهذا مشهور عنه ومنقول، وفي بعض أقوال عمر بن الخطاب: "عليكم بديوانكم لا تضلُّوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإنَّ فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم"[3]، ولم تنقل المصنفات المعتمدة لفظا غريبا لا يشهد له بيت من شعر العرب، مع ضرورة التنبيه أن الاعتماد على الشعر الجاهلي في شرح الغريب لم يكن الغرض منه "الاستدلال على عربية القرآن الكريم وفصاحته بعربية بيت من الشعر وفصاحته، إنما المقصود زيادة إيضاح المعنى، وتقريره في نفس القارئ أو السامع"[4]

إنّ جراءة الادِّعاء الاستشراقي ومن نحى نحوها لم تدم طويلا لخلوها عن الصحة، ولا يغرّنك دفاع آربري عن الشعر الجاهلي لضيق مساحته، إذ لا يعدو عتبة الاستدلال على الثبوت، لكنه لا يختلف عن مكر أمثاله في الدس لثوابت العرب ونسف الأصالة

[1] - (1323 - 1390 هـ = 1905 - 1970 م)أرثر. أربري مستشرق بريطاني، من أعضاء المجمع العلمي العربيّ بدمشق. تعلم بمدرسة اللغات الشرقية في بورتسماوث، وكلية بمبروك في كمبردج. واتقن العربية والفارسية، ورأس قسم الدراسات القديمة في الجامعة المصرية (سنة 1932 - 34) وعين أمينا لمكتبة ديوان الهند (34 - 39) واختير وزيرا للأنباء في الهند (1940 - 44) ثم كان أستاذا للعربية في جامعة لندن. ونشر كتبا عربية ووضع (فهارس) لمكتبة شستربتي العربية، في دوبلن (بايرلندة). رأيت منها تسعة مجلدات، و(فهرس المخطوطات الإسلامية في مكتبة ديوان الهند - ط) بالانكليزية كالذي قبله. ومثلها (ملحق ثان للمخطوطات الإسلامية في جامعة كمبردج) طبع سنة 1952. وكتب أبحاثا ودراسات عن بعض أعلام العرب ومصنفاتهم فيدائرة المعارف والمجلات العلمية، بالانكليزية/ الزركلي، المصدر السابق، ج1، ص 287

[2] - مالك بن نبي، المرجع السابق، ص 22

[3] - محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ج1، ص 57

[4] - علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، طبعة دار التراث الأول، 1412هـ، 1991م، ص 216

القرآنية، وهو منهج اعتمدوه بلغوا به شأوا حين وخزوا به العقول العربية، وأعلّوا به الفكر العربي وأضروا الثقافة الإسلامية.

إنّ حديثا جريئا عن الشعر الجاهلي لا ينبغي أن يقف عند مرحلة اكتماله واستقامته قصائدا ومعلقاتٍ، بل بعود إلى مرحلة الطفولة والنعومة التي قلّت دلائلها، وهي قضية أثيرت في القرن الخامس الهجري على يد الزوزني (ت 486هـ) الذي يقول:" لا ريب في أنَّ المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى في صورته الجاهلية غامضة، فليس بين أيدينا أشعارا تصور أطواره الأولى، وإنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة في الوزن والقافية، وفي المعاني والموضوعات، وفي الأساليب والصياغات المحكمة، وهي تقاليد تلقي ستارًا صفيقًا بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى، فلا نكاد نعرف من ذلك شيئًا"[1]، ومع ذلك فإنَّ المصنفات قدّمت جهودا محمودة في هذا الشأن، من خلال الحديث عن البيئة العربية، والمنافسات الشعرية التي تحظى بالتكريم وتمثيل القبيلة أو التأخير وإعادة الترتيب، وثمّة ضرب آخر من الاستدلال على هذه النشأة يُعين في نسف الادعاء الاستشراقي، فإذا عُلم أنّ القصائد العربية تعتمد على أوزان معلومة لم تؤسس إلا في صدر الإسلام على يد الخليل الفراهيدي، فقد تناقلت الأخبار جزءا من اختلال بعض القصائد والأبيات وخروجها عن مجموع هذه الأوزان والعروض[2]، وعليه "فاحتفاظ الشعر الجاهلي بهذه العيوب العروضية يؤكد صحته في الجملة، وأن الرواة لم يصلحوه إصلاحًا واسعًا"[3]، ومع ذلك فقد أسّست هذه العيوب لمسألة دقيقة في علم العروض سُميت بالزحافات.

إنّ ما عاشته العقول العربية إزاء ثوابتها العربية والإسلامية كان مسطّرا على خلفية الفتوحات الإسلامية التي خاضتها الجيوش الإسلامية ومعها العقل العربي المسلم، وكانت هزائم المعسكرات الغربية دافعا لبث هذه السموم باسم الانتقام والنيل من جأش هذه الجيوش، وحوصرت الأمة الإسلامية بثلاثي الشر السالف الذكر، ولأن الجانب الفكري والثقافي كان أهم ما ركّز عليه هذا الثلاثي، فإنّ مسألتي الشعر الجاهلي والإعجاز القرآني كانتا من أهم المستهدفات، وهي ثوابت أصيلة ترتبط

[1] ـ الزوزني، حسين بن أحمد، شرح المعلقات السبع، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1423هـ 2002م، ص 5

[2] - أنظر ما ذكره الزوزني في شرحه للمعلقات، ص 6

[3] - ـ المصدر نفسه، ص 6

بالثقافة الإسلامية، وربما ركز أصحاب هذه الدعاوى على فرض منهج من التعليم لا يرقى إلى مصاف الشرف أو الفضيلة، ومع ذلك فإنّ جيلا واسعا من الباحثين والمهتمين عملوا على جهاد فكري لهذه الدعاوى من خلال دراسات تأصيلية لماضي العرب المتمثل في الشعر الجاهلي، وحاضرهم المتين المتمثل في الإعجاز القرآني.

صفات وخصائص العرب البيانية:

إنَّ قراءة أدبية في الفشل العربي عن معارضة(*)القرآن الكريم تُوقف على ميزات خاصة دفينة في أعماق نفسيات العرب، ذاك أنّ إدراك القيمة البيانية على صلة بالموضوع، وأنّ أمرا غريبا كان كامنا في ذاتيتهم تجاه آيات الذكر الحكيم، كان أقرب إلى شعورهم بقوة القرآن الكريم البيانية، بقول صاحب المناهل: "وإذا كان أمر القرآن لم يحركهم ولم يسترع انتباههم فلماذا كانت جميع هذه المهاترات والمصاولات مع أن خصمهم الذي يزعمون خصومته قد قصر لهم المسافة ودلهم على أن سبيلهم إلى إسكاته هو أن يأتوا بمثل أقصر سورة مما جاءهم به أليس ذلك دليلا ماديا على أن قعودهم عن معارضة القرآن ليست إلا بسبب شعورهم بعجزهم عن هذه المعارضة واقتناعهم بإعجاز القرآن وإلا فلماذا آثروا الملاكمة على المكالمة والمقارعة بالسيوف على المعارضة بالحروف"[1]

يلزم وحال العرب هذه، الكشف عن هذه الميزات التي توازي في ذاتيات العرب المقومات الأدبية والبيانية التي امتلكوها، وتلزم من جهة أخرى استصحاب مكمن الإعجاز القرآني وأنه النظم والبيان، وأنَّ خصائصه تختلف عن معهود كل بيان عربي في تطيقه قوى البشر.

وقد حاول الدكتور محمود شاكر استخلاص واستجماع هذه الخصائص فيما يلي:

"أولها: أن اللغة التي نزل بها القرآن معجزاً، قادرة بطبيعتها هي، أن تحتمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلامين: كلام هو الغاية في البيان فيما تطيقه القوى، وكلام يقطع هذه القوى ببيان ظاهر المباينة له من كل الوجوه.

ثانيها: أن أهلها قادرون على إدراك هذا الحجاز الفاصل بين الكلامين. وهذا إدراك دالّ على أنهم قد أوتوا من لطف تذوق البيان ومن العلم بأسراره ووجوهه، قدراً وافراً

[1] - الزرقاني عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي وشركاه، ط3، ج2، ص 414

يصح معه أن يتحداهم بهذا القرآن، وأن يطالبهم بالشهادة عند سماعه، أن تاليه عليهم نبي من عند الله مرسل.

ثالثها: أن البيان كان في أنفسهم أجلَّ من أن يخونوا الأمانة فيه، أويجوروا عن الإنصاف في الحكم عليه"[1]

ولهذه الخصائص والميزات جاء إعلانهم القاضي بحتمية الاعتراف بعلو شأن الكتاب وبعده عن مداركهم البيانية حين قال تعالى:﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾[2]، وجاء بعده التأكيد الإلهي القاضي بحتمية العجز العربي حين قال تعالى:﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[3]، فلم يكن بذلك فرق بين ما يعتقدون في القرآن الكريم من بعد المرتبة البيانية، وبين ما ألزمهم به القرآن ذاته حين فرض عليهم التحدي.

لقد عمل العرب في ربوع الجزيرة العربية على التقديم لأساسيات البلاغة العربية إذ ظهرت في عصرهم الجاهلي في شكل فن من خلال أسواقهم ومسابقاتهم الشعرية، أو أقوالهم وأمثالهم، ومع ذلك فقد تطوّرت بفضل القرآن الكريم، لكن نشأتها لم تكن دفعة واحدة، بل بفضل جهود مختلف القرون من الثالث إلى السادس، تنوعت خلالها سبل الاستشهادات بالإضافات القرآنية للبلاغة العربية من جهة البيان، وعليه فإنّ خصائصهم البيانية السابقة الذكر ما كانت لتُصاغ وتُقام على هذا النحو لولا آيات الذكر الحكيم، التي كانت في ذاتها سببا للإيمان بمجرد إدراك الفرق بين نمطي الكلام، وهي عملية تدفع إلى صياغة معادلة بيانية أخرى تعنى بالعلاقة بين الأمرين مفادها "أنّ ثمرة هذا الفنّ إنّما هي في فهم الإعجاز من القرآن لأنّ إعجازه في وفاء الدّلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة وهي أعلى مراتب الكمال مع الكلام فيما يختصّ بالألفاظ في انتفائها وجودة رصفها[4]

إنّ عدم إيمان بعضٍ من أبناء العرب لم يُعزّ في واحد من المصنفات إلى التقليل من شأن القرآن، بل إلى انبهار سابق في الأسماع، واعتراف دفين بعلوه ورفعته، وهو

---

[1] ـ مقدمة الظاهرة القرآنية، ص 32

[2] ـ سورةالإسراء الآية 88

[3] ـ سورة الإسراء الآية 88

[4] ـ ابن خلدون عبد الرحمان، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق، خليل شحادة، دار الفكر بيروت، ط2، 1408هـ، 1998م، ص 762

مربط فرس شديد لم يجد الطاعنون المحدثون الذين لم يستسيغوا طبيعة العجز العربي فما وجدوا تجاهه سوى التنكر إلى ثوابت الأصالة العربية كان الشعر الجاهلي أحدها، وهو الثابت بقصائده وأوزانه، وبكاء أصحابه، وغيرها من أدلة الثبوت واليقين، ولو قورن بينه وبين قصائد العصر الإسلامي لظهر الفرق شاسعا، وقد لا يتطلب كثيرا إذا ما اكتفينا بقول القائل "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه في الإسلام"[1]

خاتمة:

من خلال هذه الصفحات يتضح أنّ العقل الحديث لم يجد طريق الهناء سهلا في إدراك أمر إعجاز القرآن الكريم، وزاد من حدة تيهانه أن اجتمع عليه ثلاثي الشر. المتمثل في النصرانية والاستشراق والحداثة. والذي لم يهنأ أيضا حتى نال من ثوابت الأصالة العربية والإسلامية، وإنه لمن العجب أن تكون الطائفة التي أعرضت عن الإيمان من أبناء العرب أكثر إنصافا لآيات الذكر الحكيم رغم أنّ هذا الثلاثي اتخذ من إعراضهم مدخلا مهما لإنكار ما أنكروه، فالعرب كما سبق كانوا أجل من يخونوا الأمانة في بيانهم حتى يعارضوا بيان القرآن الكريم، وأما هؤلاء فقد علموه حقا، فكان إنكارهم إيذانا باستبدال القاعدة من قولهم من جهل شيئا عاداه، إلى قولهم من خاف شيئا عاداه.

ستظل على وفق هذا البلاغة القرآنية قائمة حجة على اللسان الذي لا يزداد بعد العصور الأولى إلا تدنيا، وسيظل معها الإعجاز أكبر امتحان شهده العقل العربي الحديث، والذي بقدر ما عانى في تحديد موطنه ومكمنه، فإن اجتهاده المضني لا يخفى على عاقل، ومنذ فتح المعتزلة الباب واسعا، فلا تزال الكتابات والأبحاث القرآنية والأدبية والبلاغية واللغوية والنحوية والصرفية وحتى الأسلوبية تُقدّم لمصنفاتها ومؤلفاتها بفصول مهمة في الإعجاز وتحاكي أقوال المعتزلة ومن جاء بعدهم، جاعلة من دراساتهم وأبحاثهم مرحلة مناسبة للتحليل والنقد والدراسة.

لن تقف الأبحاث والدراسات القرآنية عند حد معين، طالما تعتمد على القرآن الكريم الذي يكشف في كل محطة جديدة أن عجائبه لا تنقضي، والمثير للاهتمام أن أغلب صنوف الإعجاز تجعل من السياق أساسا في التحليل والدراسة، فمثلما نجده في

[1] ـ البغدادي عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1418هـ،1997م، ج4، ص 424.

باب الإعجاز البلاغي نجده في الإعجاز العلمي أو التشريعي أو البياني، مما يُبرِّر أنّ العقل العربي في معركته اللفظية والمعنوية كان بين محنة ومنحة، وأنّ طول هذه المعركة سمحت بكل هذه المزايا والميزات في مختلف فنون العلم.